

رحلة الطائف .. وقفات وعظات

لقد عانى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عانى من قريش، فبينما هو يدعوهم للحوز بسعادة الدارين، كانوا يصدون عن دعوته، ويحرضون عليها القبائل، ولا يتوانون يصيبونه بأشد أنواع الأذى المادي والمعنوي، حتى كانت السنة العاشرة من البعثة الشريفة التي توفي فيها أبو طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم وزوجه خديجة رضي الله عنها، حتى ابتدأت مرحلة عصيبة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم واجه فيها كثيراً من المصاعب والمحن والفتن، إذ أصبح في الساحة وحيداً لا ناصر له إلا الله تعالى.

ومع اشتداد الأذى بالنبي صلى الله عليه وسلم وبصحابته الكرام ما توقف عن الدعوة ولا استكانت همته في تبليغها ولا ضعفت بصيرته في تنويع أوقاتها وأساليبها، فكان صلى الله عليه وسلم ينوع وبيّنكر في أساليب الدعوة، فقد قص القصص وضرب الأمثال كما رغب وبشر، ورهب وأنذر، ودعا في كل آن وعلى كل حال، وبكل أسلوب مؤثر فعال.

فها هو ينتقل في شهر شوال إلى الطائف البلد الأقرب إلى مكة رجاء نصرته على قومه ومساعدته حتى يتم أمر ربه تعالى، وقد اختار لصحبته زيد بن حارثة، فما كان أهل الطائف إلا أن ردوا عليه رداً قبيحاً ولم ير منهم خيراً، فقد أرسلوا سفهاءهم وغلمانهم يقفون في طريقه ويرمون بالحجارة حتى أدموا عقبه، إلا أن الله تعالى أكرمه بإسلام الفتى عداس النصراني، ورفع قدره بحضور جبريل وملك الجبال عليهما السلام لنصرته وبشره بانتقال دعوته إلى الجن وذلك بإسلام نفر منهم كانوا قد استمعوا لتلاوته المباركة، ثم بإسلام الطفيل بن عمرو الدوسي الذي تبعه جمع كبير من قبيلته دوس على الإسلام، رغم دخول النبي صلى الله عليه وسلم مكة في جوار المطعم بن عدي الكافر.

وإزاء هذه الأحداث من رحلة الطائف نقف على بعض دلالاتها ومنها:

١. بيان عظم جهاد النبي صلى الله عليه وسلم وتضحياته لتبليغ رسالة ربه تعالى، وعلو همته، وقوة إرادته، فهو الذي يبدع وبيّنكر، وينطلق من مكان إلى آخر بلا كلل ولا ملل، حتى جاءه اليقين.

٢. إظهار أن ملة الكفر واحدة، فبينما كانت قريش تسوم النبي صلى الله عليه وسلم سوء العذاب، كانت الطائف ذات علاقة العداء بقريش ترد نصرته وتصيبه بألم معنوي ومادي شديد، حتى وصف النبي صلى الله عليه وسلم يوم الطائف بأنه الأشد عليه، حتى من يوم أحد.

٣. بيان رحمة النبي صلى الله عليه وسلم كيف لا وهو الذي أرسله ربه رحمة للعالمين، وقد خيره ملك الجبال بطبق الأخشيين الذين حول مكة على أهلها الكفرة، إلا أنه قال: **"بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً"** (متفق عليه).

٤. تقدم وقائع رحلة الطائف صورة حية لنصرة الله تعالى لدعوته ولأوليائه، ففي الوقت الذي توصلت الأبواب في وجه الدعوة وقائدها من قبل الإنس، كان نفر من الجن يستمعون لتلاوته المباركة، الأمر الذي قادهم إلى الإسلام، بل وإلى قومهم منذرين داعين إلى الله تعالى، وكذلك إسلام الفتى عداس النصراني من نينوى في العراق.

٥. دعوة المسلم إلى اغتنام النظم والأعراف والقوانين المختلفة لخدمة الإسلام، فالنبي صلى الله عليه وسلم قد استفاد من عرف الجوار، فدخل مكة في جوار المطعم بن عدي الكافر، الذي وفر له الحماية وحمل وأولاده السلاح لحماية النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الجوار.

٦. بيان أن عاقبة الصبر على المحن والابتلاءات هي النصر والتمكين، فما هو إلا وقت قليل حتى كانت رحلة الإسراء والمعراج تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وبعدها قيام دولة الإسلام بالمدينة المنورة.